المحاضرة 01: الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر.

تمهيد:

أدى وقوع العالم العربي في يد الاستعمار البلد تلو الآخر إلى إحداث هزة جديدة في الشعر العربي الحديث، وضعته أمام واقع جديد مغاير تماما للواقع السكوني الذي كان عليه أيام الاحتلال التركي الذي شجعت العاطفة الدينية على سكونيته أكثر.

فتبلورت رؤية جديدة لهذا الشعر، متمثلة في ضرورة التصدي للاستعمار ومخططاته التي تفنن العقل الغربي الاستدماري في حبكها وإحكامها على الشعوب العربية [i]، وهذا الموقف الجديد عبر عنه الشعر الحديث بأساليب مختلفة ومتنوعة، وكانت الثورة الجزائرية من الثورات التي تركت بصماتها على البشرية، وألهمت قرائح الشعراء في كامل الوطن العربي، فكتبوا عنها وعن بطولات مجاهديها وثوارها على اختلاف في الأدوات واللغة المستعملة.

أولا - علاقة الشعر بالثورة.

1- مفهوم الثورة:

أ/لغة: ورد في لسان العرب:« ثار الشيء: ثورا وثؤروا وثوران وتثور: هاج...، وثوره الغضب: حدثه، والثائر: الغضبان، ويقال للغضبان أهيج ما يكون: قد ثار ثائره وفار فائره، إذا غضب وهاج غضبه...، ويقال: انتظر حتى تسكن هذه الثورة، وهي الهيج».[ii]

ونقول: أرض مثارة إذا ما أثيرت بالسن وهي الحديدة التي تحرث بها الأرض، وأثار الأرض من قلبها على الحب بعدما فتحت، وقال الأعرابي: ثورة من رجال وثورة من مال للكثير، والثور القطعة العظيمة من الأقط، والجمع أثوار وثورة على القياس، والجمع أثوار ويثار وثورة وثيرة وثيران وثيرة...،ويقال: هذه ثورة مثيرة أي تثير الأرض... وثوران الريح كالهبيب، وثار الغبار سطع وبابه، قال: وثورانا أيضا وإثارة غيره وثور فلان الشيء تثويرا هيجه وأظهره، وثور القرآن بحث عن علمه[iii].

يتضح من هذه التعريفات اللغوية أن معنى الثورة يصب في قالب الرفض والتغيير، ذلك الرفض الإيجابي المقبول لا السلبي المرفوض، أي أن مفهوم الثورة يدور حول الثورة الكلية المنظمة ذات الرؤية الإستراتيجية المؤدية في نهايتها وعبر مراحلها المختلفة إلى نتيجة إيجابية تحقق الخير والصلاح والنفع للجميع.

ب- اصطلاحا:

لا يبتعد التعريف الاصطلاحي لكلمة الثورة عن المدلول اللغوي؛ حيث يلتقي معه في معنى التغيير والهبوب والحرث والانقلاب والتهيج والقوة، والبحث عن الجدة والاختلاف، فالثورة تعني«فعل التغيير الشامل أو هي بتعبير أدق أقصى مراحل الرفض للسلبيات»[iv]، وإذا كان التمرد حركة لا نتيجة لها في الواقع واحتجاجا غامضا لا ينطوي على نظام أو مذهب، فالثورة «محاولة لتكييف العمل وفقا لفكرة ابتغاء تشكيل العالم داخل إطار نظري»[v]، ومن ثمة فالثورة فعل إنساني هدفه التغيير الشامل والتطهير الكلي، إنها الهيجان الذي يقلب ملامح الأرض ويهز الأعماق، ويغير الخرائط ويبدل المجتمعات والأفكار من حال إلى آخر.

وقد تعني الثورة «تلك التي تشمل كل شيء، فكل اختراع ثورة، وكل اكتشاف ثورة، كل فكرة جديدة ثورة، كل زي جديد إما في اللباس وإما في المأكل والمشرب والمأوى، وإما في اللغة والأدب، وإما في الصناعة والتجارة، أو في الدراسة والعبادة، أو في التقاليد والنظم السائدة ثورة، وهذه الثورات هي التي بها تتجدد الحياة من يوم ليوم ومن جيل لجيل»[vi].

ومصطلح الثورة وإن كان قد عرف واستعمل في تراثنا العربي الديني منه والسياسي، إلا أنه لم ينفرد وحده بالدلالة على تلك المعاني التي أشرنا إليها، من أنه «العلم الذي يوضع للممارسة والتطبيق من أجل تغيير المجتمع تغييرا جذريا وشاملا... والتي استقرت في أدبنا السياسي الحديث، فلقد شاركته في الدلالة على هذه المعاني أو بعضها مصطلحات أخرى».[vii]

وتعرف الموسوعة العربية الميسرة مصطلح الثورة بأنه « تغيير جوهري في الأوضاع السياسية والاجتماعية لدولة معينة لا تتبع في إحدى الوسائل المقررة لذلك في النظام الدستوري لتلك الدولة، ويفرق بعضهم بين الثورة وبين قلب نظام الحكم على أساس أن الأولى يقوم بها الشعب نفسه، في حين يقوم بالانقلاب بعض رجال الحكم، ويترتب على نجاح الثورة سقوط الدستور وانهيار النظام الحكومي القائم.»[viii]

إن الثورة بهذا المفهوم جزء لا يتجزأ من السياسة، أو هي وجهها الآخر؛ أو هي « البوتقة التي تنصهر خلالها الروح ويتطهر في أتونها الوجدان ويتبلور بدمائها الفكر»[ix]، وغالبا ما تكون ثورة السلاح نتيجة منطقية ومتوقعة للتعفن السياسي الذي يلقي بظلاله السوداء على كل مناحي الحياة الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وحينئذ تصبح الثورة السبيل الأوحد والحل الأمكن لتحقيق التغيير والتطوير والتبديل المستمر.

2- جدلية الثورة و الشعر.

إذا كان الشعر في كافة أشكاله ودلالاته هو تحريض وتثوير وتحرير سواء أكان تثويرا لغويا أم معرفيا أم تصويريا أم بنائيا على مستوى رؤية الواقع والعالم، دون فصل بين شكل ومحتوى أو رؤية ورؤيا، فالشعر بهذه الصورة يساوي الثورة، والثورة تساوي الشعر[x]، أو هما وجهان لعملة واحدة، إذ الكلمة سلاح فعال من أسلحة الثورة لا تقل فتكا عن الرصاص، إنها على حد يعتبر مایاكوفسكي «قائد القوى البشرية».[xi]

ثم إن الشعر أكثر أنماط الأدب ليونة وأقدرها على التعبير عن المكنونات من جهة، واحتواء للثورات من جهة أخرى، والشعر يكتب الثورة ويشعلها كما الثورة تفتح مجال الإبداع والخلق للشاعر، فهي تصنع له الأفكار، وتخلق له الرؤى، ولا نتخيل أن علاقة كهذه كل حدودها المنفعة المتبادلة لا تنفصم، بل من ليسير أن تتهاوى، إذا كان كل ما يوحدهما هذه البراغماتية المؤقتة.

لكن علاقة الشعر بالثورة أعمق من هذا وأوثق، ذلك أن الشاعر إنسان يعيش مجتمعه وواقعه وآفاقه، بل هو شعلة أحاسيس وموهبة ووعي تؤهله لأن يكون أكثر انفعالا وتفاعلا من الإنسان العاري مع ما يطرأ من أحداث، والشاعر يعطي الثورة أعز ما يملك ويبذل في ذلك بعضا من دمه وجسده وروحه وأعصابه ووجوده.

ولعل أهم وظائف الشاعر أن يمهد للثورة وينشؤها، ويعرض عليهم مثلا جديدة يحببها إليهم، ويزينها في قلوبهم، وهو بهذا يفتح للثورة أبواب النفوس والضمائر، ويمهد لها الطريق في حياة الأفراد والجماعات فيتاح له النجاح ويدركه الإخفاق أحيانا أخرى،[xii] أليس هو وجدان الأمة وعقلها المفكر ولسانها الناطق وضميرها الحي الذي لا يموت وقلبها الخافق بالنبض ما دامت فيه الحياة.

ومن هنا كان الشعر الذي يدعو إلى الثورة و«يمهد لها ويغري بها، ويلهب نارها ويسمع ذويها ويدفعها إلى الأمام دفعا، و يخرجها من ظلام الظلم إلى ضياء الحق، ويجعل منها واقعا فعليا بعد أن كانت فكرة وحلما، هو ذاك الذي نسميه ثورة الشعر»[xiii]،وكان الشعر الذي يظهر بعد أن تستقر الأوضاع وتتضح الأمور، و«تختمر الأشياء والأفكار في الذاكرة، وتنمو تلك البذرة الطيبة، فإذا هي شجرة مباركة جذور ها في الأرض وفروعها في السماء هو شعر الثورة.»[xiv]

وعليه فإن الثورة في الشعر ليست موضوعا بقدر ما هي موقف يفقه الشاعر من مختلف القضايا وطابع خاص يطبع شعره، وهذا ما يتلمسه المتلقي لشعر الشعراء العرب المعاصرين –بعد أن خمدت جذوة الثورة ولهيبها، حيث تنوعت نظرتهم للأحداث التي عاشتها البلاء أيام الثورة التحريرية، تحسسها الشعراء معلما محددا لتوجه المسار التاريخي لشعرهم، إذا ابتدأت معها مرحلة جديدة مختلفة تاريخيا وشعريا عن سابقتها.

لقد كان للثورة التحريرية نتائج مدمرة ومريعة، وكانت لها آثارها على نفسية الجزائريين قاسية،وبالمقابل كانت «وسيلة الشعراء إلى التعبير عن هذه الإحساس برومانسية حزينة، وإن لم تكن سوداوية قاتمة»[xv]، وبذلك تهيأت دوافع التغيير والثورة والتمرد والرفض لدى الشعراء، تلمسوها في الاطلاع والانفتاح على ما يصدر في المركز الغربي.

ولعل تحليل هذا الخطاب الشعري، لا يمكن أن« يتراجع إلى منطقة التحليل المضموني أو الموضوعاتي المتروك، بل عليه أن يلتمس إجراءاته ومنهجه فيما أسفرت عنه التقنيات الجديدة لبحوث الشعرية، خاصة في سياقها التداولي الذي يسمح بالعناية المتوازنة بجميع عناصر التواصل في الخطاب الشعري، وهي عناصر تستوعب النص كما تحيط بدوائره المباشرة، فشمل المرسل والمتلقي، وتتضمن زمن الخطاب ومكانه، وتحدد الفضاء الذي يتم فيه استقباله والعلاقات المتبادلة.»[xvi]

وإذا كانت سلطة الخطاب الشعري متجذرة في تاريخنا الثوري والقومي والوطني منذ كان الشاعر اللسان والعين المبصرة لأمته، وارتبط تاريخه بقدرته على بلورة صورة الثورة التحريرية، وتصوير الرؤية الجماعية للهوية، فإنها قد اختزلت أنواع الخطاب السياسي والقومي والوطني؛ وراهنت على تميزها وتفردها .

ثانيا- مجالات الكتابة حول الثورة الجزائرية.

كانت الثورة الجزائرية مصدر الهام كل الشعوب و كل حر عربي، وكل إنسان يحب أرضه ويلتزم بقضايا أمته ولقد أشرقت أقلام الشعراء العرب المحدثين بالثورة الجزائرية، حيث أبدعوا خيرة ما كتب في هذا المجال، خاصة وأن الثورة الجزائرية هي الثورة الأولى في العالم التي حظيت بقصائد واهتمام الشعراء، فلم يبق شاعر عربي إلا وكتب وتمعن في الثورة الجزائرية، وذلك لأنها كانت ثورة شعب بأكمله من أبناء البسطاء والطيبين الذين قاوموا بكل ما أوتوا من قوة، كما لم يفعل غيرهم من الشعوب.

أضف لهذا أن الثورة الجزائرية جاءت بعد ثورات تحرر متواصلة في البلاد العربية، وحروب طاحنة ضد قوى الاحتلال المختلفة، وكذلك تنامي الحس الوطني القومي في معظم الدول العربية الإسلامية.

فلا ريب إذن أن نرى مدى تأثر الشعراء العرب في العصر الحديث بالثورة الجزائرية التي ألهبت حماسهم وقصائدهم على حد سواء، فانطلقوا يدافعون عنها ويصفون أحداثها، حتى أصبحت عندهم مثالا حيا للحرية والاستقلال والسيادة الوطنية، فنرى الشاعر **سعدي يوسف** يتغنى بانتصار الجزائر وشعبها، وهو في شوق لانتصار شعبه في العراق، فيقول في قصيدة "إليك... أيتها الجزائر"[xvii] .

هنا، يا صخرة سوداء، جئنا نغرز الراية

نغني عشبها الأخضر

ننادي نبعها الأبيض

نشم البرعم الأحمر

هنا، في الريح، في الأرض التي تزأر

وهبنا وجهها الأخضر

مراعي النجم والأنهار

وهبنا نبعها الأبيض

حنين الصمت والثوار.

يسجل الشاعر موقفا متميزا من خلال انفعاله بالحدث، وتفاؤله بالانتصار في أرض العراق، وهو الموقف الذي سجله الشاعر **"سليمان العيسى"** إزاء الإحساس العارم بالثورة الجزائرية، وافتخاره بأعمال شعبها وانتصاراتهم على الاستدمار، فيقول:[xviii]

آلاف الأقدام الصلبة

موسيقا واعية عذبة

موسيقا تنسجها تربة

عجت بوميض الأحداق

بالحرقة بالدمع الباقي

يتشوق عبر الآفاق

ميلاد اليوم الموعود

بدء التاريخ الموؤود

ميلاد ينابيعي الثرة

ميلاد جزائري الحرة.

يريد الشاعر أن يجعل من الثورة الجزائرية مثالا يحتذي به جل الدول العربية؛ لأن الاستعمار مهما طال فإن شمس الحرية والاستقلال مشرقة لا محالة، وثورة الجزائر المظفرة خير دليل ومثال على ذلك.

وفي سياق ثنائه على بطولة المرأة الجزائرية المكافحة "جميلة بوحيرد"، يرى **سليمان العيسى** أن هذه السجينة التي تحولت قضيتها إلى رمز للتصدي والمواجهة العربية للاستعمار تختزن في رمزيتها سير البطولة العربية، يقول:[xix]

أين مني جميلة؟ تزار السا حات من صمتها بألف حداء

أي سر في الصمت يرسله الأبطال نارا، وصاعقات فداء!

عظمت صيحة الفداء، وعزت أن توارى في دامس الظلماء

هي فينا سحر القصيد إذا غنى، ووهج النارية البتراء

هي في غضبة الملايين تهوى فوق جلادها سياط ازدراء.

وبهذا فإن الشاعر يشيد ببطولة هذه المجاهدة المكافحة ضد الاستعمار في الجزائر رغم ما تعرضت له من أشكال مختلفة من التعذيب والإذلال، فكانت مثالا مهما للبطولة من أجل وطنها الجزائر، و «كان ملفها يحوز اهتمام العالم، الأمر الذي جعل بعض الشخصيات العالمية ترسل محامين للدفاع عنها، خصوصا من فرنسا نفسها... وقد جعلت السينما العربية من كفاحها قصة تعرض على الملأ، وألفت فيها الكتب ونظمت الأشعار وكتبت المسرحيات»[xx]

وليست جميلة بوحيرد البطلة الوحيدة التي خطفت الأضواء في تاريخ الثورة الجزائرية، حيث يكتب **عبد الوهاب البياتي** عن الشهيد"العربي بن مهيدي" حاملا صورة رأسه المدلى بعد إعدامه في سجنه، وقد ارتسم ظله على الجدار، بينما ترجع أصداؤه وهو يتلو القرآن بأعلى صوته فيسمع كل من ضمه السجن، يقول:[xxi]

قمر أسود في نافذة السجن، وليل

وحمامات وقرآن وطفل

أخضر العينين يتلو

سورة النصر، وقل

من حقول النور، من أفق جديد

قطفته يد قديس شهيد

يدقديس وثائر

ولدتها في ليالي بعثها شمس الجزائر.

وثمة موقف جديد يضيفه **"محمد مهدي الجواهري"** إلى موضوع الثورة الجزائرية والتغني بها، وذلك في قصيدة "الجزائر"حيث نجد التشجيع والحماس للمجاهدين وشحذ هممهم من أجل المضي قدما، وتحقيق النصر، يقول.[xxii]

ردي علقم الموت لا تجزعي

ولا ترهبي جمرة المصرع

فما سعرت جمرات الكفاح

لغير خليق بها أروع

دعي شفرات سيوف الطغاة

تطبق منك على المقطع

فأنشودة المجد ما وقعت على غير أوردة قطع.

كما يرفع**حسن عبد الله القرشي** آيات الإعجاب بالثوار الجزائريين الذين لا يخافون العدو ولا يهابون آلته الرهيبة، فهانت عندهم المصائب وهم "ذوابة الأوراس" انطلقوا من أجل تحقيق النصر أو الشهادة، فيقول.[xxiii]

كم رحت أهفو نحوهم في حلك الكفاح

لا يأكمون للضنى، للهول، للجراح

ويغزلون في الدجى أجنحة الصباح

"ذوابة الأوراس" لا يرهبهم سلاح

شراعهم يهابه "القرصان" والرياح

ثاروا فيا أرض أشرقي بالمجد، يا بطاح.

خاتمة:

ليس شعر الثورة حكرا على أولئك الذين تمرغوا في وحل عذابها، واحترقوا بلهيب نارها، واضربوا في أحداثها، فأنتجوا شعرا مضطربا تلمس فيه المعاناة والاحتراق، وهو بالنسبة إليهم المرآة الصادقة التي تعكس واقعهم الحقيقي.

وإنما يكتبه جيل من الشعراء العرب المعاصرين يأتي بعد انتهاء الثورة، فيدرك نتائجها الايجابية، ويحصد ثمارها الطيبة، ويتكون لديه الإحساس الصادق والفهم العميق لأسرارها، فتكتمل في منظوره الرؤى، وتتضح في ذهنه المفاهيم، جيل من الشعراء النوابغ المؤهلين بأعلى المهارات الفنية يعيد تشكيل مادة الثورة في قالب شعري

رائع، كسعدي يوسف، وعبد الوهاب البياتي، وسليمان العيسى، وعبد الله القرشي... وغيرهم ممن حملوا على عواتقهم قضايا الوطن والهوية والقومية، وسعوا من وراء ذلك إلى بث روح الوعي والمسئولية وإيقاظ العقول والضمائر وإذكاء نار الثورة الجزائرية المشرقة. فكانت الثورة الجزائرية ومازالت ملهمة الشعراء العرب وسليلهم في شحذ همم الشعوب العربية لأنها قدمت للعالم أجمع درسا في الفداء والتضحية والنضال، أسهم في انجاحها كل طبقات المجتمع دون استثناء.